

تحديد مفهوم الأدب المقارن

أ.م.د. علي مجيد البديري

كلية الآداب/جامعة البصرة

قسم اللغة العربية

تعددت المفاهيم التي وضعها الباحثون لمصطلح (الأدب المقارن) *comparative literature* بشكل كبير، وانعكس ذلك على حدود الميادين والموضوعات التي يُعنى بدراستها هذا الحقل المعرفي. إلا أن هذا التعدد والاختلاف لم يجعل من مسألة اكتساب الأدب المقارن ملامحه ومجآله البحثي الخاص أمراً صعباً أو مستحيلاً، بل على العكس من ذلك، منحه هذا التعدد فرصةً للتجديد والانفتاح على المستجدات في المعارف والآداب. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال تتبع التحولات التي طرأت على مفهوم الأدب المقارن منذ نشأته وحتى استقراره حقلاً بحثياً له خصوصيته وتميزه عن بقية أنواع الدراسات الأدبية الأخرى.

إن أول تحديد علمي للأدب المقارن هو الذي وضعته المدرسة الفرنسية، التي تُعدُّ الرائدة في مجال التنظير للمقارنة الأدبية، يعرف مؤسسها الناقد بول فان تيغيم الأدب المقارن بأنه ((دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض))^(١)

تسعى المقارنة - عند فان تيغيم - إلى الكشف عن العلاقات ما بين الأحداث والوقائع المتمية إلى جماعات مختلفة ومتباعدة غالباً، من أجل استخلاص القواعد والقوانين التي توجه هذه الوقائع، وتحقيق معرفة أوسع وأدق بطبيعة تشكُّلها. وتُعدُّ الدراسة المقارنة مكملَةً لنتائج الدراسات الأدبية المعنية بالأدب القومي، فهي تُعنى بمعاينة بُعدٍ آخر خارجي من أبعاد الأدب القومي، يتمثل في علاقته بالآداب الأخرى. ولا بد من تحقق الصلة التاريخية بين الأدبين اللذين يُراد عقد المقارنة بينهما، وإثبات ذلك الاتصال بشكل قطعي ومؤكد، وهو ما يعد شرطاً أساسياً في عملية المقارنة، إذ لا يكفي مجرد التشابه ما بين أدبين مختلفين لأن يكون موجهاً للباحث المقارن في دراسته. وإنَّ الحدود اللغوية من الأسس المهمة في التمييز بين الآداب القومية، فيجب أن يكون البحث في الصلات الأدبية ما بين أدبين من لغتين مختلفتين، كدراسة المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي الحديث، أو تأثير الفلسفة الوجودية في الرواية العربية الحديثة، وغيرها من الموضوعات.

(١) الأدب المقارن : فان تيغيم ، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد - مصر، د.ت: ٢٦

ويعرّف جان ماري كاريه الأدبَ المقارن بأنه فرعٌ من فروع تاريخ الأدب، وهو يشمل على دراسة العلاقات الوجدانية بين الأمم، والعلاقات الفعلية القائمة بين الأعمال الأدبية، ومصادر إلهامها وحياتها كتابها في أكثر من أدبٍ قومي.^(٢) ويحاول كاريه في تعريفه هذا الخروج من تقييد المقارنة وحصرها بين أدبين، ليمنح المبادلات الثقافية المختلفة فرصة الدخول في ميادين المقارنة، فتكلم عن (علاقات وجدانية أو روحية) بدلاً عن (علاقات أدبية).

ويتفق ماريوس فرانسوا غويار في رؤيته مع فان تيغم، فالأدب المقارن لديه هو ((تاريخ العلاقات الأدبية الدولية))^(٣)، وعلى الباحث المقارن أن يراعي الحدود اللغوية أو الوطنية ويتحرى عن تبادل الموضوعات والأفكار والكتب وغيرها مما يروم مقارنته بين أدبين وأكثر. وفي كل ذلك يجب على الباحث أن يجعل طريقة عمله منسجمة مع طبيعة بحثه.^(٤)

وفي أواخر الخمسينيات من القرن العشرين ظهرت ملامح مدرسة جديدة في الأدب المقارن هي المدرسة الأمريكية، وبدأت من تأشير الأخطاء التي وقعت فيها سابقتها الفرنسية، وانتقدت ضيق الرؤية والأزمة المنهجية التي وضعت فيها الدراسة المقارنة، وسعى رينيه ويليك - أحد أبرز أعضاء المدرسة الجديدة - إلى وضع تعريفٍ بديلٍ للأدب المقارن، فهو لديه ((الدراسة الأدبية المستقلة عن الحدود اللغوية والعنصرية والسياسية، ولا يمكن حصر الأدب المقارن بمنهج واحد فالوصف والتشخيص والتفسير والرواية والتقويم عناصر لا تقل أهمية عن المقارنة فيه))^(٥)

ومن ثم جاءت إضافة هنري ريباك التي حاولت أن تتخذ مساراً توفيقياً هادئاً، يجمع بين النقد لطروحات المدرسة الفرنسية ومناقشتها وبين طرح الرؤية الجديدة؛ في مقالته المهمة (الأدب المقارن، تعريفه ووظيفته)، وفيه يسعى إلى تحديد جملةٍ من المفاهيم الهامة في نظرية المقارنة، فعرف الأدب المقارن بأنه ((دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومجالات مختلفة من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى كالنون (الرسم والنحت والمعمار والموسيقى) والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم والدين وغيرها من ناحية أخرى، وبعبارة مختصرة هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمجالات أخرى من التعبير الإنساني))^(٦).

(٢) ينظر: الأدب المقارن : ماريوس فرانسوا غويار ، تر: د. محمد غلاب ، وعبد الحليم محمود ، لجنة البيان العربي - القاهرة : (تقديم الكتاب) : ٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٥

(٤) ينظر : المصدر السابق : ١٥-١٧ ، إذ يمكن ملاحظة تطابق آراء غويار مع فان تيغم في موضوعات كثيرة .

(٥) رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، مطابع الرسالة، الكويت ١٩٨٧، ص ٣١٨.

(٦) ينظر النص - منقولاً بتصرف - عن :

آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً : د. حسام الخطيب، دار الفكر - دمشق ، ط ٢ ، ٢٠٠٣ : ٥٠

وهكذا، فمجالات الأدب المقارن وميادينه البحثية متسعة هنا، إلى الحد الذي تجاوزت فيه الشروط التي وضعتها المدرسة الفرنسية للمقارنة، فأصبح بإمكان الباحث أن يدرس مناطق التفاعل المتعددة ما بين الآداب ومختلف المعارف والفنون، وهو ما شكّل نقطة خلاف أثارها كثيرٌ من الباحثين حول هذا المفهوم الجديد، إذ ستضيع - برأيهم - على وفق هذا الانفتاح والتوسع ملامح الأدب المقارن الخاصّة وحدودُه ومنهجيته .

وفي تطور آخر يحدّد جيرمونسكي - من أبرز مقارني المدرسة السلافية ومنظريها - مفهوم الأدب المقارن بأنه ((علم يعنى بدراسة تطور الآداب القومية في إطار الأدب العالمي الذي يوحد الشرق والغرب، وهو ينطلق من وحدة السياق التاريخي لتطور آداب الشعوب، ومن حقيقة التفاعل الثقافي المستمر فيما بينها، وبعبارة أخرى، ينطلق من مبادئ الأخوة والتعاون بين الشعوب في مسيرة عملية التقدم والتطور التاريخيين فيما يخص القضايا الثقافية، ولاسيما الأدبية منها)).^(٧)

ولعل ما يميز هذا الاتجاه نظريته المغايرة للسائد في تفسيره ظاهرة التأثير والتأثر ما بين الآداب المختلفة على وفق تفصيلات سنعرض لها لاحقاً .

(٧) علم الأدب المقارن : شرق وغرب : فيكتور مكسيموفيتش جيرمونسكي ، ترجمة وتقديم : غسان مرتضى ، حمص -